على عهد الامير

امانة لبناني

لو سبدي طيب ما شفتي بفهرك !

حكاية لبنانية تاريخية

بقلم فؤاد افرام البستاني

اذا ذُكر الشيخ بشير جنبلاط ، ذكر خصم اليزبكيين الالد ، وزعيم الجنبلاطيين الاكبر ، واعظم ركن لمناوئي الامير في الشوف . كان يغضب على احكام مولى البلاد فيغضب معه الالوف من الشوفيين ولا يعرفون سبب غضبه ؛ حتى اذا رأى ان قوة الامير اشدّ من ان تقاوم ، اظهر الرضى عن الحالة ، فرضي حزبه معه . وهكذا كانت حياته مع سيّد لبنان : يظهر السخط فيقابله الامير بالعنف ، ويبدي الطاعة فيكافئه بالانعام ، حتى قتل سنة ١٨٢٥ ، فاستراح الجميع من دهائه .

وكان للشيخ بشير ابن عم يدعى عليًا شاطره شرف المولد ، فاراد ان يعادله خطرًا وتأثيرًا في البلاد ، فألف حزبًا خاصًا جمعه من شذّاذ اليزبكيين ، ومغاظي الجنبلاطيين ، وبعض دعاة ابي نكد ؛ وراح ينافس ابن عمه في مآتيه ، فيناظره في آرائه ، فيناوئه في مواقفه تجاه الامير . حتى اصبح المولى نقطة الخلاف بين الشيخين ، اذا نفر عنه بشير تقرّب منه علي ، واذا ابتعد عنه علي تألّف اليه بشير .

وحدث ، في تلك الاثناء ، ان استحكمت عُرى الولاء بين الامير والشيخ بشير ، فتعاظم الخلاف بينه وبين علي ، حتى تعدّت المسألة طور الوعيد الى العمل والتأديب . فامر الامير نفرًا من رجاله ان يهاجموا رجال الشيخ علي في الشوف ، فساروا . وكان هذا قد عمل فيه الحقد على الامير وبغضه لابن عمه ، وطمع في احداث حركة في البلاد تكون سبب شهرته ، وغرّته امانة رجاله المخلصين ،

فقسمهم فرقاً تعيث في تلك الجهات ، كلٌّ بمنطقتها . حتى وُجِّه اليه الامير تلك الشرذمة ، ففتّ في عضده . فجمع رجاله في اعالي السمقانية ، وبعد ان قوّى عزائمهم الخائرة ، تحالف وإياهم على الموت معاً او الانتصار معاً . وكان في كلامه نبرة خاصة برهنت عمّا نفسه من رباطة جأش ، وقوة عزم ، واستخفاف بالامور ؛ فنفخ في قومه عاطفة شديدة ، واضرمهم بتلك الحماسة الوخيمة ، فثاروا يقتلون البنادق بالهواء ، ويخرقون الجوّ باهازيجهم الحادّة

والتقى الفريقان في سهول بقعاتا . فتحاجز الرجال بالمتاريس مدّةً لا ينال احد من خصمه مراماً ؛ ولا يسمع الا طلقات متناوبة ، فردية ، لا تهيج غضباً ، ولا تثير شجاعة ؛ حتى ترك الشيخ علي متراسه وصاح برجاله فحملوا حملة الاستقتال . فصدّهم رجال الامير السيف بالسيف والرصاص بالرصاص . وكان الشيخ ينتقل بسرعة البارق من نقطة الى اخرى ، يخطف الابصار بعقاله المذهّب وباساور بندقيته الفضية الساطعة تحت اشعة الشمس . فكان كمن نصب نفسه غرضاً لسيوف العدو ، وهدفاً لرصاصهم ، فطمحاً لمناخرهم ، تحوم حوله ابصار الجميع ، وكلٌّ راغبٌ في ارداته .

وكان الامير خليل ، ابن الامير بشير ، وقائد رجاله في تلك الموقعة ، يجتهد في ان لا يمسّ الشيخ علياً أحدٌ قبله . فنحى مَن امامه من الرجال وصوّب الى خصمه فوهة بندقيته . وما ان دوّى الرصاص حتى تطايرت ذوائب كوفية الشيخ علي . . . ورأى العصاة قائدهم يتميل قليلاً في سرجه ، فينحني معانقاً رقبة جواده ، مرخياً له اللجام ، فيطير به هذا الى ما وراء تلك السهول . عند ذاك تخاذلت قواهم ، ففرّ بعضهم وراء الشيخ والرصاص يتناثر على رؤوسهم ، واستسلم الباقون ؛ فاقتيدوا صاغرين الى سجون القصر المظلمة . وعاد الامير خليل تلاقيه زراغيد الفرح ، ويستقبله دخان البارود .

* * *

على ان الامير الكبير لم يطمئن باله لهذا النصر ، وظلّ موجساً من وجود الشيخ علي . فأخذ في بثّ العيون للتفتيش عنه ، فلم ينل نتيجة . وكان هذا قد لجأ ، بعد ان تخلّى عنه الجميع ، الى مغارة نيحا المشهورة بعمقها ، ومناعتها .

فانتهى اليها منهوك القوى ، خائر العزيمة ، وقد سال اكثر دمه من جرحه البليغ ، فانطرح بقرب موجاً ، فتجاوبه اصداء الكهف ، ويثنى مؤانساً فلا يراه الا في كواسر تلك الشواهق . وكأن حتى الجرح آثرت في دماغه ، فاخذ يهذي ، متخيلاً رجاله يدافعون عنه ، ثم ينهزمون ، ثم يعودون الى الحرب فينهزمون ثانية ، تاركينه غارقاً في دمه المتدفق . . . وهكذا قضى نهاره ، فلم يتبه في الماء ، الا لخيال يرتقي ببطء مرتفعات الجبل ، وينسل بين طيّات الصخور ، ويقطع اخاديد الكهف الى قرب الشيخ ، فيغسل جرحه ، ويضمده بلفافات من القماش الغليظ ، ثم يجلس صامتاً ، ساهراً على باب المغارة .

كان هذا غنطوس القهوجي ، البغدادي الاصل ، خادم الشيخ عليّ الخاصّ ، وكان قد شهد مصير سيّده بعد ان خرقت جبينه رصاصة الامير خليل ، وعرف وجهة هربه ، فاسرع الى قريته وتزوّد ما يلزم من الماء واللفافات ، وانتظر الليل حتى غلّف الجفون ، فصعد بخفة الماعز الى ذاك الملجأ الامين .

وظلّ في خدمة سيده الجريح خمسة عشر يوماً يسير في النهار بين القرى المجاورة ، فيستصحب الادوية والزاد ، حتى اذا جنّ الليل عاد الى مقرّه ، فاعاد ضماد جرح الشيخ ، وسهر عليه بعين يقظى . بينما كان الامير بشير ، وقد يئس من الوقوف على عدوّه ، يُرسل عمّاله فينادون في القرى والمدن ان من يأتي برأس الشيخ علي جنبلاط ، او يدلّ على مقرّه ، يُعطى عشرة اكياس ، ويُعيّن في «خيالة الامير» .

وكان غنطوس يسمع ذلك في سيره بين القرى ، فيهزّ رأسه لاحكام مولى لن يتمكن من فصل خادم عن سيّده . . .

* * *

مرّ على معركة بقعاتا اسبوعان ، والامير بشير لا يزال مهتمّاً بتلافي نتائج ذاك العصيان . واذا باحد حجّابه يدخل عليه « قاعة العمود » ويقول :

— يا مولاي على الباب شيخ يطلب مواجهة سعادتك !

— دعه يدخل .

وما لبث الحاضرون ان رأوا شيخاً ربع القامة ، عبث الشيب بلحيته ،

وخرق الفقر عباءته ، يتقدّم مرتجف الاعضاء ، كليل البصر .

فنظر اليه الامير طويلاً وقال :

— وما تطلب يا عم ؟

فحنى الشيخ رأسه ببطء ، وجمع اطراف عباءته الى الامام ، وقال بصوت ضعيف :

— يعيش راسك ! سيدي يفداك .

— ومن سيدك ؟

فاطرق الشيخ ايضاً ، وقال بصوت يخنقه الاسف :

— انا غنطوس القهوجي من بعدران . وسيدي الشيخ علي جنبلاط . وقد مات ودفنته هذا الليل في مغارة نيحا !

وكانت تلك الكلمات المتقطعة تقع بسكون على السامعين ، فبهتوا جميعهم .

اما الامير فتفرّس طويلاً في الشيخ ، ثم هزّ رأسه ، وقال :

— انك لكاذب ! وتريد ربح العشرة الاكياس . . . والّا فاين رأس سيدك المزعوم !!!

فارتجف غنطوس لذكر رأس سيده ، وتراجع مذعوراً لتصوّره نسبة الخيانة اليه ، واجاب بكل بطء .

— لو سيدي طيّب ، ما شفتني بقصرك !

ثم ادار ظهره الى الامير ، واتجه بسكون نحو الباب .

* * *

عند ذاك تحقق الامير امانته ، فاكرمه ، واتخذه بين رجاله ، فاعطاه فرساً ، واجرى عليه « خرجاً » ، وفتح له غرفة في قصره .